

من قضاء شريح

عن الشعبي قال: اشترى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فرسا من رجل على أن ينظر إليه، فأخذ الفرس فسار به فعطب (أى أصابته إصابة) فقال لصاحب الفرس خذ فرسك، فقال: لا، قال: فاجعل بيني وبينك حكما، قال الرجل: شريح^(١) قال: ومن شريح، قال: شريح العراقي، قال: فانطلقا إليه، فقصا عليه القصة، فقال: يا أمير المؤمنين رد كما أخذته، أو خذ بما ابتعته. فقال عمر: وهل القضاء إلا هذا، قول فصل وحكم عدل، سر إلى الكوفة فقد وليتك قضاءها.

عن إبراهيم بن يزيد التيمي عن أبيه قال: وجد علي بن أبي طالب درعا له عند يهودى التقطها ففرها، فقال: درعى سقطت عن جمل لي أورك، فقال اليهودى: درعى وفى يدي، ثم قال له اليهودى: بيني وبينك قاضى المسلمين، فأتوا شريحا، فلما رأى عليا قد أقبل تحرف عن موضعه وجلس على فيه ثم قال علي: لو كان خصمى من المسلمين لساويته فى المجلس. ثم قال شريح: ما تشاء يا أمير المؤمنين، قال: درعى سقطت عن جمل لي أورك والتقطها هذا اليهودى، فقال شريح: ما تقول يا يهودى، قال: درعى وفى يدي. فقال شريح: صدقت، والله يا أمير المؤمنين إنها لدرعك ولكن لا بد من شاهدين. فدعى قنبرا مولاه والحسين بن علي وشهدا أنها لدرعه، فقال شريح: أما شهادة مولاك فقد أجزناها، وأما شهادة ابنك فلا نجيزها. فقال علي: ثكلتك أمك أما سمعت عمر بن الخطاب يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الحسن والحسين سيदा شباب أهل الجنة، قال: اللهم نعم، قال: أفلا تجيز شهادة سيد شباب أهل الجنة، والله لأوجهنك إلى بانقيا تقضى بين أهلها أربعين يوما، ثم قال لليهودى خذ الدرع.

فقال اليهودى: أمير المؤمنين جاء معى إلى قاضى المسلمين فقضى عليه ورضى، صدقت والله يا أمير المؤمنين إنها لدرعك سقطت عن جمل لك إلتقطتها، أشهد ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. فقال علي: أما وقد أسلمت، الدرع لك وهذا الفرس لك. ثم لم يزل معه حتى قتل يوم صفين.

من كتاب (حلية الأولياء وطبقات الأصفياء) لأبى نعيم الأصبهاني.

(١) هو شريح بن الحارث بن قيس بن الجهم الكندي، أشهر من تولى القضاء فى الإسلام، ولاه عمر رضى الله عنه قضاء الكوفة وبقي فى منصبه ستين سنة، هو من اليمين دخل الإسلام فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم، أغلب الظن أنه لم يدرك رسول الله حيا فلم يحظ بشرف الصحبة، حدث عن كبار الصحابة، قال فيه على رضى الله عنه: هو أفضى العرب، عاش مائة وثمان سنين، توفى عام ٧٨ هـ..

الصابون من مائتي عام

حدث في مصر في ذى القعدة سنة ١٢٣١ للهجرة ما حصل في هذه السنة من شحة الصابون وعدم وجوده بالأسواق ومع السراحين، وهو شيء لا يستغنى عنه الغنى ولا الفقير، وذلك أن تجاره بوكالة الصابون زادوا في ثمنه محتجين بما عليهم من المغارم والرواتب لأهل الربيع، فيأمر الكتخدا^(١) فيه بأمر وبسعر فيدعون الخسران وعدم الربح، وتكرر الحال المرة بعد المرة ويشتكون من قلة المجلوب إلى أن سعر رطله بستة وثلاثين نصفاً فلم يرتضوا ذلك وبالغوا في التثكي، فطلب قوائمهم وعمل حسابهم وزادهم خمسة أنصاف في كل رطل وحلف ألا يزيد على ذلك، وهم مصممون بدعوى الخسران، فأرسل من أتباعه شخصاً تركيا لمباشرة البيع وعدم الزيادة، فيأتي إلى الخان في كل يوم يباشر البيع على من يشتري بذلك الثمن لأربابه ويمكث مقدار ساعتين من النهار ويغلق الحواصل ويدفع البيع لثاني يوم، وفي ظرف هاتين الساعتين تزحم العسكر على الشراء ولا يتمكن خلانهم من أهل البلد من أخذ شيء، وتخرج العسكر فيبيعون من الذي اشتروه على الناس بزيادة فاحشة فيأخذ الرطل بقرش ويبيعه على غيره بقرشين.

ورفع التثكي إلى الكتخدا فأمر ببيعه عند باب زويلة في السبيلين المواجه أحدهما للباب والسبيل الذي أنشأته الست نفيسة المرادية عند الخان تجاه الجامع ليسهل على العامة تحصيله وشراؤه، فلم يزداد الحال إلا عسراً، وذلك أن البائع يجلس داخل السبيل ويغلق عليه بابه ويتناول من خروق الشبابيك من المشتري الثمن ويتناوله الصابون، فازدحمت طوائف العسكر على الشراء ويتعلقون بأيديهم وأرجلهم على شبابيك السبيلين، والعامة أسفلهم لا يتمكنون من أخذ شيء، ويمنعون من يزاحمهم فيكون على السبيلين ضجة وصياح من الفريقين، فلا يسع ابن البلد الفقير المضطر إلا أن يشتري من العسكري بما أحب وإلا رجع إلى منزله من غير شيء.

واستمر الحال على هذا المنوال أياماً، وفي بعض الأحيان يكثر وجود الصابون بين أيدي الباعة بوسط السوق ولا تجد عليه مزاحمة، وأمام البائع كوم عظيم وهو ينتظر من يشتري، وذلك في غالب الأسواق، مثل الغورية والاشرفية وباب زويلة والبندقانيين. والجهات الخارجية ثم يصبحون فلا يوجد منه شيء، ويرجع الزحام على السبيلين كالأول.

من كتاب (عجائب الآثار في التراجم والأخبار للجبرتي).

(١) لفظ فارسي من كلمة كدخدا بمعنى نائب أو وكيل، واستخدم هذا اللفظ أثناء الحكم العثماني، فكان أولاً يطلق على نائب الوالي، ثم أصبح يطلق على كل من يشغل وظيفة نائب لأي وظيفة أقل من الوالي مثل كتخدا خازندار وغيرها من الوظائف.

سليمان وعامل الحجاج

كان يزيد بن أبي مسلم الثقفي مولى الحجاج بن يوسف الثقفي وكاتبه، وكان فيه كفاية ونهضة. وقدمه الحجاج بسبب ذلك. ولما حضرته الوفاة استخلفه بالعراق. وأقره الوليد بن عبد الملك. وقيل إن الوليد هو الذى ولاه بعد موت الحجاج. وقال الوليد: يوما مثلى ومثل الحجاج ويزيد بن أبي مسلم كرجل ضاع له درهم فوجد دينارا. قلت مثل فى هذا الحجاج بالدرهم ويزيد بالدينار. فلما مات الحجاج خلفه يزيد فكأنه وجد دينارا بعد ضياع الدرهم لما رأى من فضل يزيد وحسن عقله وبلاغة لسانه. ولما مات الوليد وتولى أخوه سليمان عزل يزيد المذكور. واستحضره فرآه دميما كبير البطن قبيح الوجه، فقال: لعن الله من أشركك فى أمانته وحكمك فى دينه. فقال: يا أمير المؤمنين، لا تقل فإنك رأيتنى والأمر مدبرة عني، ولو رأيتنى وهى مقبلة على لاستعظمت ما استصغرت ولا استجللت ما احتقرت. فقال سليمان: قاتله الله ما أشد عقله وأعدب لسانه.

ثم قال سليمان: يا يزيد أترى صاحبك الحجاج يهوى بعد فى نار جهنم أم قد استقر فى قعرها؟ فقال: لا تقل ذلك يا أمير المؤمنين. فإن الحجاج عاد عدوكم ووالى وليكم وبذل مهجته لكم. فهو فى يوم القيامة عن يمين عبد الملك وعن يسار الوليد. فاجعله حيث أحببت. وفى رواية أخرى: يحشر بين اثنين أبيك وأخيك فضعهما حيث شئت.

قال سليمان: قاتله الله أوفى لصاحبه. إذا اصطنعت الرجال فلتصطنع مثل هذا. فقال: بعض الحاضرين: اقتله يا أمير المؤمنين. فقال يزيد: من هذا؟ قالوا فلان بن فلان. فقال: والله لقد بلغنى أن أمه ما كان يورأى شعرها أذنيها، فما تمالك سليمان أن ضحك. وأمر بتخليته. ثم كشف عنه سليمان فلم يجد له خيانة فى دينار ولا درهم. فهم باستكتابته. فقال له عمر بن عبد العزيز: أنشدك الله يا أمير المؤمنين ألا تحيى ذكر الحجاج باستكتابك كاتبه. فاعلمه سليمان أنه لم يخن قط فى دينار ولا فى درهم. فأجابه عمر بأن إبليس لم يخن فيهما وقد أهلك هذا الخلق، فتركه سليمان.

من كتاب (مرآة الجنان وعبرة اليقظان فى معرفة حوادث الزمان) لليافعى



مؤذن الخليفة المعتصم!

لم يكن لأحد من خلفاء بني العباس ما كان للمعتصم^(١) من سياسة وهيبة وعدل، ولم يملك أحد ما ملك من العلمان الترك والذي يقال إن عددهم كان سبعين ألفا. ولقد رقى كثيرين منهم فأوصلهم إلى الإمارة، وكان يردد دائما أن ليس ثمة من هم في مستوى الأتراك من الخدمة.

حدث رجل في عهد المعتصم قائلا: كنت مؤذنا على مؤذنة هذا المسجد منذ ثلاثين سنة، وأكسب رزقي من الخياطة. لم أشرب الخمر ولم أرتكب الزنا. أو أقترف الأعمال القبيحة قط، ومنذ ذلك الوقت وأنا أسكن هنا في حي أحد الأمراء، وذات يوم صليت العصر وخرجت من المسجد متجها إلى الدكان فإذا ذلك الأمير سكران وممسك بعباءة امرأة شابة يدفعها عنوة وهي تصرخ وتقول: أيها المسلمون أغيثوني فلست من هذا الصنف من النساء، إنني ابنة فلان وزوج فلان وبيتنا في المكان الفلاني والناس كلهم يعرفونني بالستر والصلاح، إن هذا التركي يجرنى عنوة لقضاء مآربة الدنيئة، لقد أقسم زوجي أنه سيطلقني إن تغيبت عن المنزل ليلة.

لقد كانت تبكي وتستغيث دون أن يهب لنجدها أحد لأن التركي كان عظيما ومهيما، وكان له عشرة آلاف فارس ولم يكن أحد يجروا أن يكلمه حرفا، غير أنني صرخت لمدة قصيرة لكن دون جدوى إذ مضى بالمرأة إلى قصره وثار في نفسه لذلك التعدي والظلم الحمية الدينية فذهبت وجمعت شيوخ الحي ثم مضينا جميعا إلى قصره فاعترضنا وصرخنا بأعلى أصواتنا، ألم يبق ببغداد مسلم حتى تساق بها امرأة من الشارع كرها على سم الخليفة وبصره لارتكاب الفاحشة معها. إن تترك المرأة فيها ونعمت وإلا فها نحن أولا ماضون الى بلاط المعتصم نشكوك إليه.

ولما سمع الأمير صراخنا خرج إلينا مع غلماننا فأوجعنا ضربا وكسروا أيدينا وارجلنا.

(١) هو أبو إسحاق محمد المعتصم بالله بن هارون الرشيد بن المهدي بن المنصور، الخليفة الثامن من خلفاء بني العباس (٢١٨-٢٢٧هـ/٨٣٣-٨٤٢م) تولى الخلافة بعد وفاة أخيه المأمون عام ٢١٨هـ. بنى مدينة سامراء الشهيرة عام ٢٢١هـ واتخذها عاصمة للكل، أشهر فتوحاته مدينة عامورية الرومية عام ٢٢٣هـ وكان سبب ذلك استغاثة امرأة مسلمة على حدود بلاد الروم بالمعتصم حيث قالت كلمتها الشهيرة (وامعتصماه) فلما بلغه ذلك قال: لبيك يا أختاه، وذهب على رأس جيش فتح به عمورية وأنقذ المرأة، هو أول من استعان بالترك بعد غلبة العنصر الفارسي عند من سبقه من خلفاء بني العباس، توفي عام ٢٢٧هـ.

ولما رأينا الأمر على هذا الحال لذنا بالفرار وتفرقنا وكان الوقت عشاءً، فأديت الصلاة وبعد مدة ارتديت ثياب نومى واضطجعت على الأرض. لكنه لم تغمض لى عين لشدة ما كنت فيه من إعياء وغيره. واستغرقت فى تفكير عميق إلى أن مضى من الليل نصفه، وقلت لنفسى: إن كان يريد فسادا فقد حقق بغيته، الأمر الذى لا يمكن تلافيه وهذا أسوأ من قسم زوج المرأة عليها بالطلاق إن هى تغيبت عن البيت ليلا. لكننى سمعت أن المدمنين ينامون حين يأخذ منهم السكر مأخذه وأنهم حين يقبعون لا يدركون كم مضى من الليل، حينئذ صممت على أن أصعد إلى المئذنة وأؤذن للصلاة فلربما يظن التركى حين سماع الأذان أن النهار قد وضح فيطلق سراح المرأة ويخرجها من قصره ولا بد لها بعد ذلك أن تمر بالقرب من باب المسجد، أما أنا فسأنزل بعد الأذان حالا وأقف بالباب فى انتظارها لأوصلها إلى بيت زوجها حتى لا تدفع المسكينه طلاقها وخراب بيتها لما حدث.

ونفذت ما فكرت به فصعدت المئذنة وأذنت للصلاة وأمير المؤمنين المعتصم لم ينم، فلما سمع الآذان فى غير وقته غضب غضبا شديدا وقال: إن من يؤذن فى نصف الليل لمفسد لأن كل من يسمع الآذان يظن أن الفجر قد طلع، فإذا ما خرج من بيته يبتليه العسس، وأمر أحد خدمه أن اذهب وقل لحاجب الباب إننى (أى المعتصم) أريدك أن تذهب الآن وتحضر المؤذن الذى رفع الآذان فى نصف الليل لأعاقبه عقابا شديدا حتى لا يرفع أى مؤذن الآذان فى غير مواعده بعد ذلك.

وعلى حين كنت واقفا بباب المسجد أنتظر المرأة، إذا الحاجب يتهادى ويبيده سراج، فلما رأتى قال: أنت الذى أذن للصلاة، قلت: بلى، قال: لماذا أذنت فى غير وقت؟ لقد استنكره الخليفة جدا وهو لهذا ساخط عليك كثيرا، فأرسلنى فى طلبك لتأديبك، قلت: الحكم ما يراه الخليفة، إلا أن شخصا سيء الخلق حملنى على أن أرفع الآذان فى غير وقته. قال: فمن يكون هذا؟ قلت: هو الذى لا يخشى الله ولا يخاف الخليفة. قال: ومن ذا الذى كانت له الجرأة على ذلك؟ قلت: هذا أمر لا أبوح به لغير أمير المؤمنين، أما إن كنت أذنت متعمدا لشىء فى نفسى فإن أية عقوبة يقض بها الخليفة ستكون قليلة بحقى.

قال: بسم الله هيا بنا إلى الخليفة، ولما وصلنا إلى مدخل القصر كان الخادم فى انتظارنا، فقال الحاجب للخادم كل ما قلته له وهرع الخادم إلى المعتصم وأخبره، فقال له: إنذهب واحضره، وأخذنى الخادم إلى المعتصم، فقال لى: لماذا رفعت الآذان فى غير أوانه؟ وسردت عليه قصة التركى مع المرأة من أولها إلى آخرها، فلما سمعها طار صوابه وقال للخادم: قل

لحاجب الباب امض الآن بمائة فارس إلى قصر الأمير فلان وقل له الخليفة يستدعيك ،
و حين تقبض عليه أخرج المرأة التي كان ساقها أمس عنوة إلى قصره وخذها إلى بيتها ثم ادع
زوجها إلى الباب وقل له أن المعتصم يقرؤك السلام ويتشفع لديك فى أمر هذه المرأة ويقول
لم يكن لها أى ذنب فيما حدث فعليك أن تحسن معاملتها الآن أكثر من أى وقت مضى ،
ثم عد إلى بسرعة ، أما عن الشيخ فقال لى ابق هنا قليلا .

وبعد فترة جئى بالأمير إلى المعتصم الذى ما إن وقعت عيناه عليه حتى قال له : يا كذا
وكذا ما الذى رأيت من عدم حميتى وغيرتى على الدين الإسلامى أو من ظلمى للناس وأى
خلل طرأ على الإسلام والمسلمين فى عهدى؟ ألسنت أنا الذى خرج من أجل مسلم وقع
أسيرا بأيدى الروم من بغداد إلى بلادهم فكسرت جيوشهم وهزمت قيصرهم ودمرت بلادهم
على مدى ست سنوات ، أولست أنا الذى هدم القسطنطينية وأحرقها وبنى فيها المسجد
الجامع ولم يعد قبل أن يخلص ذلك الرجل من قيصرهم ، إن الذئب والشاة يشربان فى هذه
الأيام من مورد واحد لعدلى والخوف منى ، فكيف تجرؤ على سوق امرأة ببغداد إلى قصرك
عنوة وترتكب معها الفاحشة ، وتعتدى على من نهوك وأمروك بالمعروف ضريا؟! ثم أمر
أن أحضروا جولقا وضعوه (أى الأمير التركى) فيه ثم أحكموا ريطه ، ففعلوا ، بعد ذلك أمر
بمدقين مما يفتت به الجص وقال : ليقف واحد فى هذا الطرف وواحد فى الطرف الآخر
ثم اضرباه إلى أن يصير إربا إربا ، وشرع الرجلان يضربانه فورا إلى أن فتتاه تفتيتا وقالا : يا
أمير المؤمنين إن عظامه دقت دقا ، فأمر أن يحملا الجولق مثلما هو ويلقيانه فى نهر دجلة ،
بعد ذلك قال المعتصم لى : يا شيخ اعلم أن من لا يخاف الله لا يخافنى أيضا ، فى حين أن
من يخافه عز وجل لا يقدم على عمل يعاقب به فى الدنيا والآخرة ، أما هذا الرجل فقد
لاقى جزاءه لأنه فعل ما لا يفعل . وأما أنت فإننى آمرك من الآن بأن ترفع الآذان فى غير
وقته كلما علمت بظلم شخص لآخر أو إيذائه إياه دونما حق أو لاستخفاف يبدو منه بالشرع
لأطلبك حين سماعه واستفسر عن الأمر وأعاقب المذنب بمثل ما عاقبت به هذا الكلب ، وإن
يكن ابنى أو أخى ، ثم أمر لى بصلة وصرفى .

من كتاب (سياستنامه) لنظام الملك الطوسى .

يوم القيامة بعد غد !

فى يوم الأربعاء الرابع عشر من ذى الحجة آخر سنة ١١٤٧ للهجرة، أشيع فى الناس بمصر^(١) أن القيامة قائمة يوم الجمعة سادس عشر من ذى الحجة، وفشا هذا الكلام فى الناس قاطبة، حتى فى القرى والأرياف، وودع الناس بعضهم بعضا، ويقول الإنسان لرفيقه: بقى من عمرنا يومان، وخرج الكثير من الناس والمخاليع بالغيطان والمتنزهات ويقول بعضهم لبعض: دعونا نعمل حفا ونودع الدنيا قبل يوم القيامة. وطلع أهل الجيزة نساء ورجالا وصاروا يغتسلون فى البحر، ومن الناس من علاه الحزن وداخله الوهم، ومنهم من صار يتوب من ذنوبه ويدعو ويبتهل ويصلى.

واعقدوا ذلك ووقع صدقه فى نفوسهم، ومن قال لهم خلاف ذلك، أو قال هذا كذب لا يلتفتون لقوله ويقولون: هذا صبيح وقاله فلان اليهودى وفلان القبطى، وهما يعرفان فى الجفور والزيرجات (التنجيم) ولا يكذبان فى شئ يقولانه، وقد أخبر فلان منهم على خروج الريح الذى خرج يوم كذا، وفلان ذهب إلى الأمير الفلانى وأخبره بذلك وقال له إحبسنى إلى يوم الجمعة، وإن لم تقم القيامة فاقتلنى، ونحو ذلك من وساوسهم، وكثر فيهم الهرج والمرج إلى يوم الجمعة المعين المذكور فلم يقع شئ.

ومضى يوم الجمعة وأصبح يوم السبت فانتقلوا يقولون: فلان العالم قال إن سيدى أحمد البدوى والشافعى تشفعوا فى ذلك وقيل الله شفاعتهم، فيقول الآخر: اللهم انفعنا بهم، فإننا يا أخى لم نشبع من الدنيا وشارعون نعمل حفا، ونحو ذلك من الهذيان.

من كتاب (عجائب الآثار فى التراجم والأخبار) للجبرتى

□□□

(١) نورد هذه القصة التى ذكرها الجبرتى فى كتابه للإشارة إلى الجهل الذى تغشى فى العوام فى تلك الفترة حتى وصل بهم الأمر إلى تصديق الخرافات على هذا النحو.

من مناظرات الباقلاني

وجه عضد الدولة^(١) قاضي العراق أبو بكر الباقلاني^(٢) سفيرا إلى ملك الروم بالقسطنطينية، فجرت له بين يديه مع بطارفته ونبلاء ملته مناظرات ومحاورات. قال القاضي: سألتني الملك في مجلسه فقال: ما تقولون في المسيح عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام؟ قلت روح الله وكلمته وعبدته ونبيه ورسوله، كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له: «كن فيكون!» وتلوت عليه النص. فقال: يا مسلم! تقولون: المسيح عبد؟ فقلت: نعم؟ كذا تقول وبه ندين! قال: ولا تقولون إنه ابن الله؟ قلت «معاذ الله! ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله» و«إنكم لتقولون قولاً عظيماً». فإذا جعلتم المسيح ابن الله، فمن كان أبوه، وأخوه، وجدته وخاله، وعمه؟ وعددت عليه الأقارب.

فتحير وقال: يا مسلم! العبد يخلق ويحيى ويميت ويبريء الأكمة والأبرص؟ فقلت: لا يقدر العبد على ذلك. وإنما ذلك كله من فضل الله تعالى! قال: وكيف يكون المسيح عبد الله، وخلقاً من خلقه، وقد أتى بهذه الآيات، وفعل ذلك كله؟ قلت: معاذ الله! ما أحببني المسيح الموتى، ولا أبرأ الأكمة والأبرص! فتحير وقل صبره، وقال: يا مسلم! تنكر هذا، مع اشتهاه في الخلق، وأخذ الناس له بالقبول!

فقلت: ما قال أحد من أهل الفقه والمعرفة إن الأنبياء يفعلون المعجزات من ذاتهم؛ وإنما هو شيء يفعلهُ الله تعالى على أيديهم. تصديقا لهم، يجري مجرى الشهادة! فقال: قد حضر عندي جماعة من أولى دينكم والمشهورين فيكم وقالوا إن ذلك في كتابكم. فقلت: في كتابنا إن ذلك كله بإذن الله تعالى! وتلوت عليه منصوص القرآن في المسيح

(١) هو عضد الدولة ثاني ملوك بني بويه، برز عضد الدولة بعد وفاة عمه عماد الدولة. حيث خلفه في حكم أصفهان وشيراز وبلاد الكرج، لما توفي أبيه ركن الدولة آلت رئاسة البيت البويهى إلى عضد الدولة وانفتح الباب أمامه لانتزاع العراق من ابن عمه بختيار فزحف إليه وتمكن من القضاء عليه وقتله عام ٣٦٧هـ/٩٧٨م واستولى على ما تحت يديه واستقر في بغداد وأصبحت عاصمة الخلافة عاصمة لبني بويه، وخطب له على منابرها إلى جانب الخليفة العباسي، فكان أول من خطب له بعد الخلفاء، من أشهر الوافدين عليه المتنبي شاعر العصر، توفي عام ٣٧٢هـ/٩٨٣م.

(٢) هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم، القاضي أبو بكر الباقلاني المالكي (٣٣٨-٤٠٣هـ/٩٥٠-١٠١٣م) فقيه بارع ومتكلم حجة، إنتهت إليه رئاسة المالكية بالعراق في عصره، كان قائدا في الحرب التي دارت رحاها بين الدولتين العباسية والفاطمية، اشتهر بمناظراته مع الرافضة وأهل الكتاب، قال عنه ابن كثير: كان الباقلاني لا ينام حتى يكتب عشرين ورقة في كل ليلة مدة طويلة من عمره، توفي ببغداد عام ٤٠٣هـ.

«بإذنى» وقلت: إنما فعل المسيح ذلك كله بالله وحده لا شريك له، لا من ذات المسيح. ولو كان المسيح يحيى الموتى ويبرىئ الأكمه والأبرص من ذاته وقوته، لجاز أن يقال إن موسى فلق البحر، وأخرج يده بيضاء من غير سوء من ذاته! وليست معجزات الأنبياء عليهم السلام من ذاتهم دون إرادة الخالق! فلما لم يجز هذا، لم يجز أن تسند المعجزات التي ظهرت على يد المسيح، للمسيح.

وذكر ابن حيان، عن حدثه أن الطاغية وعد القاضى أبا بكر بالاجتماع معه فى محفل من محافل النصرانية، ليوم سماه.

فحضر أبو بكر، وقد احتفل المجلس وبولغ فى زينته. فأدناه الملك، وألطف سؤاله، وأجلسه على كرسى دون سريره بقليل، والملك فى أبيهته؛ وخاصته ورجال مملكته على مراتبهم. وجاء البطرک، قيم دياتهم، آخر الناس، وحوله أتباعه يتلون الأناجيل ويبخرون بالعود الرطب. فى زى حسن.

فلما توسط المجلس، قام الملك ورجاله، تعظيما له؛ ففضوا حقه، ومسحوا أعطافه. وأجلسه إلى جنبه، وأقبل على القاضى أبى بكر؛ فقال له: يا فقيه! البطرک قيم الديانة، وولى النحلة! فسلم القاضى عليه أحفل سلام، وسأله أحفى سؤال، وقال له: كيف الأهل والولد؟

فعظم قوله هذا عليه وعلى جميعهم وطبقوا على وجوههم، وأنكروا قول أبى بكر عليه. فقال: يا هؤلاء! تستعظمون لهذا الإنسان اتخاذ صاحبة والولد، وتربون به عن ذلك، ولا تستعظموه لريكم عز وجهه! فتضيفون إليه ذلك سدة لهذا الرأى! ما أبين غلظه!

فسقط فى أيديهم، ولم يردوا جوابا، وتداخلتهم له هيبة عظيمة، وانكسروا. ثم قال الملك للبطرك: ما ترى فى أمر هذا الرجل؟ قال: تقضى حاجته، وتلاطف صاحبه، وتخرج هذا العراقى عن بلدك، من يومك إن قدرت؛ وإلا لم تأمن الفتنة على النصرانية منه.

ففعل الملك ذلك، وأحسن جواب عضد الدولة وهداياه، وعجل تسريح الرسول. وبعث معه عدة من أسرى المسلمين، ووكل به من جنده من يحفظه حتى يصل إلى مأمنه. قال غيره: وكان سير القاضى إلى ملك الروم سنة نيف وثمانين وثلاثمائة.

من كتاب (تاريخ قضاة الأندلس) للنباهى.

المأمون يشده في الغناء

وكان المأمون^(١) قد حرم الغناء وشدد فيه فلقي على بن هشام، إسحاق بن إبراهيم الموصلي (المعنى الشهير) على الجسر. فقال إسحاق لعلي بكلام يخفيه: قد زارتني اليوم فلانة، وهي أطيب الناس غناء. فبحياتي إلا كنت اليوم عندي. فوعده بالحضور وتفرقا، وإذا بطفيلي يسمع كلامهما فمضى من وقته. فلبس ثيابا حسنة؛ واستعار من بعض إخوانه بغلة فارهة بسرجهما ولجامها، فركبها وأتى باب علي بن هشام بعد أن نزل من الركوب بساعة. فقال للحاجب: عرف الأمير أن رسول صاحبه إسحاق بن إبراهيم بالباب؛ فدخل الحاجب وخرج مسرعا وقال: ادخل جعلت فداك.

فدخل علي على فرح به. فقال له: يا سيدي يقول لك أخوك: تعلم ما اتفقنا عليه فلم تأخرت عني؟ فقال له: الساعة وحياتك نزلت من الركوب، والساعة أغير ثيابي وأوافيه. فاستوى على دابته ووافى منزل إسحاق؛ فقال للحاجب: عرف الأمير أني رسول علي بن هشام؛ فدخل الحاجب وخرج فقال: ادخل! جعلني الله فداك؛ فدخل فسلم وقال: أخوك يقرؤك السلام ويقول لك: الساعة نزلت من الركوب. وقد غيرت ثيابي وتأهبت للمسير فما ترى؟ فقال: قل له يا سيدي قتلنا جوعا، فبحياتي إلا ما حضرت. فرجع إلى باب علي وقال للحاجب: تعرفه أن الأمير أمرني ألا أبرح أو يجيء معي.

فغير علي بن هشام ثيابه. وركب دابته، وتبعه الطفيلي حتى نزل بباب إسحاق بن إبراهيم، ونزل الطفيلي معه. ودخلا جميعا فسلما وجلسا، وجيء بالطعام فأكلوا. وإسحاق لا يشك أنه أخص الناس بعلي. وعلى لا يشك أنه أخص الناس بإسحاق، ثم غسلوا أيديهم وقدموا الشراب، وخرجت جارية من أحسن الناس وجهها وزيا، فجلست وأتيت بعود،

(١) هو عبد الله المأمون بن هارون الرشيد، سابع الخلفاء العباسيين (١٩٨-٢١٨هـ/٨١٣-٨٣٣م). ولد في ليلة موت جده الهادي واستخلاف أبيه الرشيد. كانت أمه من الفرس البرامكة، سمي عصره بعصر العلم حيث كان محبا للعلم وأصحابه فتبحر في علوم الفلسفة والقرآن والمذاهب، قامت في عهده حركة الترجمة للكتب القديمة إلى العربية في بيت الحكمة الذي بناه الرشيد، وكانت هذه الحركة أساسا للنهضة العلمية الكبيرة التي شهدتها العالم الإسلامي في القرون الثلاثة اللاحقة، اتخذ المأمون معظم أعوانه من الفرس، عهد بولاية العهد إلى علي بن موسى الرضا الحفيد السادس للرسول صلى الله عليه وسلم فنقل بذلك الخلافة من البيت العباسي إلى البيت العلوي، غير أن هذه الحركة لم تكتمل بموت علي بن موسى مسموما عام ٢٠٣هـ. قامت في عهده العديد من الثورات استطاع القضاء عليها جميعا، توفي عام ٢١٨هـ.

فغنت أحسن غناء، ودارت الأقداح فلم يزالوا على ذلك إلى بعد العصر، وأخذ الطفيلي البول حتى كاد يأتي على ثيابه فصبر جهده؛ فلما عيل صبره قام فدخل الخلاء.

فقال على لإسحاق: يا سيدي. ما أخف روح هذا الفتى وأحل نوادره! فمن أى وقع لك؟ قال أوليس هو صاحبك؟! قال: لا وحياتك ولا رأيته قبل يومى هذا، قال: فإنه جاءنى برسالتك وقص قصته؛ وقص إسحاق مثلها، وداخله من الغيظ ما لم يملك معه نفسه؛ وقال: طفيلي يستجرى على وعلى النظر إلى حرمى والدخول إلى دارى! يا غلمان: السياط والعقابيين، المقارع والجلادين.

فقامت فى الدار جلبة، وأحضروا جميع ذلك، والطفيلي يسمع وهو فى الخلاء، ثم إنه خرج رافعا ثيابه غير مكترث بما فعلوه، وهو مقبل على تكة لباسه يشدها، ويتمشى فى صحن الدار وهو يقول: جعلت فداك! إيش بى من جهدك! فهل عرفتنى مع هذا كله؟ فقال إسحاق: ومن أنت؟ فقال: أنا صاحب خبر أمير المؤمنين، وعينه على سره، والله لولا تحرمى بطعامك ومما لحتى لتركتهما فى عمى من أمرى. حتى كنت تعرف عاقبة حالك وإقدامك على ما فيه هلاكك وفساد أمرك! فقام إليه إسحاق وعلى يسكتانه وقال له: يا هذا، إننا لم نعرفك ولم نعلم حالك، ولك الفضل علينا، وأنت المحسن المجمل إلينا؛ ولكن تم إحسانك بسترك ما نحن عليه.

ثم قال إسحاق: يا غلام، الخلع! فأتى بثياب فاخرة فصبت عليه، وتقدم بإسراج دابة هملاج بسرج مخفف ولجام حسن؛ ولم يزالا به حتى طابت نفسه، ووعدهما كتمان أمرهما، وحضر وقت الانصراف فودعهما وانصرف، فأتبعه إسحاق بخادمه معه صرة فيها ثلاثمائة دينار، فأخذها وركب الدابة ومضى. فلما كان من الغد دخل على بن هشام على المأمون. فقال: يا على، كيف كان خبرك أمس؟ على حسب ما يجرى السؤال عنه فتغير لونه. ولم يشك فى أن الحديث رفع إليه؛ فأكب على البساط يقبله.

وقال: يا أمير المؤمنين، العفو، يا أمير المؤمنين، الأمان. قال: لك الأمان. فأخبره بالقصة من أولها إلى آخرها. فضحك المأمون حتى كاد يغشى عليه، وقال: ما فى الدنيا أملح من هذا. ووجه خلف إسحاق، فلما حضر قال: هيه يا إسحاق؟ كيف كان خبرك أمس؟ فأخبره كخبر على بن هشام والمأمون يضحك. ثم قال: يا إسحاق؛ بحياتى أطلب الرجل وجنئى به، فلم يزل يطلبه حتى وجده، فكان أحد ندماء المأمون.

من كتاب (جمع الجواهر فى الملح والنوادر) للحصرى.

تيمورلنك ومسجد سمرقند

وكان تيمور^(١) قد رأى في الهند جامعا، للبصير مرتعا وللبرص رائعا، عرشه في حسن بنائه ونقشه، من الرخام الأبيض كيباط فرشه، فأعجبه شكله، وأراد أن يبني في سمرقند مثله، ففرز لذلك مكان في فرز، ورسم أن يبني له جامع على الطرز، وأن يقطع له أحجار من المرمر الصلد، وفوض أمره إلى رجل يقال محمد جلد، أحد أعوانه ومباشرى ديوانه، فاجتهد في بنيانه، وتشبيد أركانه، واستقصى جهده في تحسينه، من تأسيسه وتركيبه وترتيبه وتزيينه، وأعلى له أربع مآذن، وباهى في أئمة البنائين والأستاذين، وظن أن لو كان في ذلك أحد غيره، لما قدر أن يصنع صنعه، ويسير سيره، وأن تيمور سيشكر له صنيعه، وينزله عنده بذلك منزلة رفيعة.

فلما آب من سفرته، وتفقد ما حدث في غيبته، توجه إلى الجامع لينظر إليه فبمجرد ما وقع نظره عليه، أمر بمحمد جلد فألقوه على وجهه وربطوا رجله، ولا زالوا يجرونه، وعلى وجهه يسحبونه، حتى وضعوه على تلك الحال، واستولى على ماله من أهل وولد ومال، وأسباب ذلك متعددة، ومعظمها أن الملكة الكبرى، امرأة تيمور العظمى، أمرت ببناء مدرسة، واتفق المعمارية وأهل الهندسة أن تكون في مواضع، مقابلة لبناء هذا الجامع، فشيدوا أركانها وسددوا بنيانها، وعلوا على الجامع طباقها وحيطانها، فكانت أرسخ منه تمكينا، وأشمخ منه عريينا.

وتيمور كان نمرى الطبع، أسدى الوضع، ما تكبر عليه رأس إلا شدخه، ولا تجبر عليه ظهر إلا فضحه، وكذلك كل ما أضيف إليه، أو عول في النسبة عليه فلما رأى قامت تلك المدرسة طالت، وعلى قد جامع الجتر ترفعت واستطالت، نغل صدره غيظا واشتعل، وفعل مع مباشر ذلك ما فعل، فلم يصادفه فيما أمله سعد، وهذه الحكاية مقدمة لما أذكره بعد نكتة.

(١) هو تيمورلنك، قائد مغولي، ولد عام ٧٣٦ هـ / ١٣٣٦ م جنوبي سمرقند (أوزبكستان الحالية)، وهو من سلالة جانكيزخان المغولي إلا إنه اعتنق الاسلام. حاول تيمورلنك إعادة مجد المغول، بدأ بالتوسع من سمرقند فنجح في الاستيلاء على خوارزم عام ١٣٧٩ م ثم خراسان. وباكستان وأفغانستان ثم أذربيجان، واستولى على فارس ثم أصفهان التي بلغ عدد القتلى فيها من جراء غزوه حوالي سبعين ألفا، وبعد إخضاعه فارس وإيران اتجه إلى العراق فحربها ثم دمر بغداد عن آخرها وقتل بها أكثر من مائة ألف مسلم، وما لبث أن مات أثناء غزوه للصين عام ١٤٠٥ م. بعد أن دانت له البلاد من دلهي إلى دمشق، بعد مماته ذهب إمبراطوريته التي بناها على القتل والتدمير أدراج الرياح، وقسم ما بقي منه بين أولاده.

كان هذا الجامع كصاحبه ، أحاطت أوزار الأحجار بجوانبه . وثاقلت على غواربه ومناكبه . ودقت عنقه . طاقته عن حملها ورقت ، وتلا لسان سقفه «إذا السماء انشقت» وما أمكن تيمور الاشتغال بهدمه ثم إحكامه ، ونقض بنائه واستئناف إبرامه ، فطوى ثوبه عمارته على غرة ، واستبقى خشب أخشبه على وهنة وكسره . لكنه أمر خاصته وذويه ، أن يجتمعوا ويجمعوا فيه ، واستمر ذلك في حياته وبعد وفاته ، فكان إذا اجتمع الناس فيه للصلاة ، يرتقبون من تلك الحجارة ما يهبط من خشية الله . وصار ملك الجبال في تلك المحلة يتلو «وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة» ففي بعض الأحيان . وقد غص بالناس ذلك المكان ، وأخذ كل منهم حذره ، سقط من حجارتها من أعلاه شذرة ، ففر كل من كان جاثما ، وانفضوا إلى الأبواب وتركوا الإمام قائما ، وكان من جملتهم الله داد ، أحد الأكفاء والأنداد ، فلما اطلعوا على حقيقة الخبر ، تراجعوا وزال عنهم الخور ، فلما قضوا الفرض ، وانتشروا في الأرض ، قال لى الله داد . وكان من الدهاة ذوى الكياد ، والأذكياء النقاد له حوالى كعبة المخازى ، مائة شوط وألف طوف ينبغى أن يلقب هذا الجامع بمسجد الحرام والصلاة فيه صلاة الخوف ، وقال لى أيضا الله داد . وقد فهم معنى هذا الإنشاد . وينبغى أن ينشد ، فى شأن هذا المعبد ، ويكون رقم طرازه ، ونقش صدره ومجازه ، قول الشاعر :

سمعتك تبني مسجدا من جنابة أنت بحمد الله غير موفق
كُمطعمة الأيتام من كد فرجها لك السويل لا تزنى ولا تتصدق

من كتاب (عجائب المقدور فى أخبار تيمور) لابن عرب شام.

□□□

من عجائب الشدة المستنصرية!

وقع أيام المستنصر^(١) الغلاء الذي فحش أمره وشنع ذكره. وكان أمده سبع سنين. وسببه ضعف السلطنة واختلال أحوال المملكة. واستيلاء الأمراء على الدولة، واتصال الفتن بين العربان وقصور النيل، وكان ابتداء ذلك في سنة سبع وخمسين وأربعمائة، فنزع السعر وتزايد الغلاء، وأعقبه الوباء حتى تعطلت الأراضي من الزراعة، وشمل الخوف، وخيفت السبل برا وبحرا، وتعذر السير إلى الأماكن إلا بالخفارة (الحراسة) الكثيرة وركوب الغرر(الخطر)، واستولى الجوع فعدم القوت، حتى بيع رغيف خبز فسي النداء بزقاق القناديل من الفسطاط كبيع الطرف بخمسة عشر دينارا، وبيع الأردب من القمح بثمانين دينارا، وأكلت الكلاب والقطط حتى قلت الكلاب. فبيع كلب ليؤكل بخمسة دنانير، وتزايد الحال حتى أكل الناس بعضهم بعضا.

وتحرز (احتاط) الناس. فكانت طوائف تجلس بأعلى بيوتها ومعهم سلب وحبال فيها كلاليب. فإذا مر بهم أحد ألقوها عليه. ونشلوه في أسرع وقت وشرحوا لحمه وأكلوه. ثم آل الأمر إلى أن باع المستنصر كل منا في قصره من ذخائر وثياب وأثاث وسلاح وغيره، وصار يجلس على حصير، وتعطلت دواوينه. وذهب وقاره، وكانت نساء القصور تخرجن ناشرات شعورهن تحصن (الجوع..الجوع). تردن المسير إلى العراق، فتسقطن عند المصلى وتمتن جوعا.

واحتاج المستنصر حتى باع حلية قبور آبائه. وجاءه الوزير يوما على بغلته فأكلتها العامة، فشتنق طائفة منهم. فاجتمع عليهم الناس فأكلوهم. وأفضى الأمر إلى أن عدم المستنصر القوت، وكانت الشريفة بنت صاحب السبيل تبعث إليه في كل يوم بقعب

(١) هو أبو تميم محمد بن الظاهر المعروف بالمستنصر بالله بن علي الظاهر لإعزاز دين الله (٤٢٨-٤٨٧هـ/١٠٣٦-١٠٩٤م). هو الخليفة الفاطمي الثامن والإمام الثامن عشر في سلسلة أئمة الشيعة الإسماعيلية. اعتلى عرش الدولة الفاطمية وهو دون الثامنة، وصلت الدولة حين اعتلائه العرش إلى أقصى اتساع وقوة لها، لكنها ما لبثت أن وصلت في عهده إلى الذبول والشحوب بفعل المجاعات والقحط المتواصل فأخذت دولة المستنصر في التدهار والسقوط، وخرجت كثير من البلاد عن سلطانه، فقطعت الخطبة للمستنصر في مكة والمدينة ودخل النورمان صقلية واستولوا عليها عام ٤٦٣هـ/١٠٧١م، وتداعى حكم المستنصر في بلاد الشام. ولم ينقذ الدولة الفاطمية آنذاك إلا بدر الجمال الوزير الفاطمي الجديد ذو الأتباع والنفوذ حيث استطاع العودة بالدولة لسابق عهدها، وبدأ عصرا جديدا في الدولة تحكّم فيه الوزراء أرباب السيوف اصطح على تسميته (عصر نفوذ الوزراء). توفي المستنصر بالله عام ٤٩٧هـ/١٠٩٤م) بعد حكم دام نحو ستين عاما.

(القدح الكبير) من فتيت، من جملة ما كان لها من البر والصدقات في تلك الغلوة حتى أنفقت مالها كله وكان يجلب عن الإحصاء في سبيل البر. لم يكن للمستنصر قوت سوى ما كانت تبعث به عليه، وهو مرة واحدة في اليوم واللييلة.

ومن غريب ما وقع، أن امرأة من أرباب البيوتات أخذت عقدا لها قيمته ألف دينار، وعرضته على جماعة في أن يعطوها به دقيقا، وكل يعتذر إليها ويدفعها عن نفسه، إلى أن يرجمها بعض الناس، وباعها به تلبس دقيق بمصر، وكانت تسكن بالقاهرة، فلما أخذته أعطت بعضه لمن يحميه من النهاية في الطريق. فلما وصلت إلى باب زويلة تسلمته من الحماة له ومشيت قليلا. فتكاثر الناس عليها وانتهبوه نهبا. فأخذت هي أيضا مع الناس من الدقيق ملئ يديها لم ينبها غيره. ثم عجنته وشوته، فلما صار قرصة أخذتها معها وتوصلت إلى أحد أبواب القصر ووقفت على مكان مرتفع، ورفعت القرصة على يديها بحيث يراها الناس ونادت بأعلى صوتها:

(يا أهل القاهرة ادعوا لمولانا المستنصر الذي أسعد الله الناس بأيامه. وأعاد عليهم بركات حسن نظره حتى تقومت على هذه القرصة بألف دينار).

من كتاب (إغاثة الأمة بكشف الغمة) للمقريزي.

□□□

بين المقوقس وابن الصامت

بعث عمرو بن العاص في فتح مصر^(١) عشرة نفر إلى المقوقس صاحب مصر، كان أحدهم عبادة بن الصامت^(٢)، وأمره أن يكون متكلم القوم، وكان عبادة بن الصامت أسود، فلما ركبوا السفن إلى المقوقس ودخلوا عليه تقدم عبادة، فهابه المقوقس لسواده، فقال: نحو عنى هذا الأسود وقدموا غيره يكلمني.

فقالوا جميعا: إن هذا الأسود أفضلنا رأيا وعلما، وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا. وإنما نرجع جميعا إلى قوله ورأيه. وقد أمره الأمير دوننا بما أمره به، وأمرنا بالأنا نخالف رأيه وقوله.

قال: وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم؟ وإنما ينبغي أن يكون دونكم. قالوا: كلا، إنه وإن كان أسود كما ترى فإنه من أفضلنا موضعا، وأفضلنا سابقة وعقلا ورأيا، وليس ينكر السواد فينا. فقال المقوقس لعبادة: تقدم يا أسود وكلمني برفق، فإني أهاب سوادك، وإن اشتد كلامك على ازددت لذلك هيبة. فتقدم إليه عبادة فقال:

قد سمعت مقاتلك، وإن فيمن خلفت من خلفت من أصحابي ألف رجل أسود كلهم أشد سوادا مني وأفظع منظرا، ولو رأيتهم لكنت أهاب لهم منك لى، وأنا قد وليت وأدبر شبابى. وإنى مع ذلك بحمد الله ما أهاب مائة رجل من عدوى لو استقبلونى جميعا، وكذلك أصحابى، وذلك إنما رغبتنا الجهاد فى الله واتباع رضوانه. وليس غزونا عدونا ممن حارب الله رغبة دنيا ولا طلبا للاستكثار منها، إلا أن الله قد أحل ذلك لنا وجعل ما غنمنا من ذلك حلالا. وما يبالى أحدنا من الدنيا أكله يسد بها جوعته لليلة ونهاره وشملة يلتحقها، فإن كان أحدنا لا يملك إلا ذلك كفاه، وإن كان له قنطار من ذهب أنفقه فى طاعة

(١) كان التفتح الإسلامى لمصر فى عهد الخليفة الراشد الثانى عمر بن الخطاب رضى الله عنه عام ٦٤١هـ/٦٤١م، بواسطة القائد المسلم عمرو بن العاص رضى الله عنه، بعد أن تم للمسلمين ضم فلسطين وانتزاعها من الرومان. وقد تم لعمرو بن العاص فتح مصر بسقوط الإسكندرية عام ٢١ للهجرة.

(٢) هو عبادة بن الصامت بن قيس الخزرجى الأنصارى، من كبار صحابة النبى صلى الله عليه وسلم ومن السابقين الأولين للإسلام، شهد بيعتى العقبة الأولى والثانية، وشهد بدرًا وأحدا والخندق وباقي غزوات النبى. روى حوالى مائة وواحد وثمانون حديثًا، كان أول من وقى قضاء فلسطين فى عهد عمر رضى الله عنه، زوجته هى خولة بنت ثعلبة التى أنزل الله فيها صدر سورة المجادلة، توفى سنة ٣٤ هـ عن عمر يناهز الإثنى وسبعين عاما، دفن بالقدس الشريف.

الله، واقتصر على هذا الذي بيده، وبلغه ما كان في الدنيا. لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم ورخاءها ليس برخاء، إنما النعيم والرخاء في الآخرة، وذلك أمرنا ربنا وأمرنا به نبينا، وعهد إلينا ألا تكون همة أحدنا من الدنيا إلا ما يمسك جوعته ويستر عورته، وتكون همته وشغله في رضا ربه وجهاده عدوه.

فلما سمع المقوقس ذلك منه قال لمن حوله: هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل قط؟ لقد هبت منظره، وإن قوله لأهيب عندي من منظره، إن هذا وأصحابه أخرجهم الله لخراب الأرض، ما أظن ملكهم إلا سيغلب على الأرض كلها.

ثم أقبل المقوقس على عبادة بن الصامت فقال: أيها الرجل الصالح، قد سمعت مقاتلك وما ذكرت عنك وعن أصحابك، ولعمري ما بلغتم إلا بما ذكرت، وما ظهرتم على من ظهرتم إلا لحبهم الدنيا ورغبتهم فيها، وقد توجه إلينا لقتالكم من جمع الروم ما لا يحصى عدده، قوم معروفون بالنجدة والشدة، ما يبالي أحدكم من لقي ولا من قاتل، وأنا لنعلم أنكم لن تقووا عليهم ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم، وقد أقمتم بين أظهرنا أشهرا، وأنتم في ضيق وشدة من معاشكم وحالكم، ونحن نرق عليكم لضعفكم وقلتكم وقلة ما بأيديكم، ونحن تطيب أنفسنا أن نصالحكم على أن نعرض لكل رجل منكم دينارين، ولأميركم مائة دينار، ولخليفتم ألف دينار، فتقبضونها وتنصرفون إلى بلادكم قبل أن يغشاكم ما لا قوام لكم به.

فقال عبادة بن الصامت :

يا هذا، لا تغرن نفسك ولا أصحابك، أما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم، وأنا لا نقوى عليهم، فلعمري ما هذا بالذي تخوفنا به، ولا بالذي يكسرنا عما نحن فيه، إن كان ما قلتكم حقا، فذلك والله أرغب ما يكون في قتالهم. وأشد لحرصنا عليهم، إن قتلنا من آخرنا كان أمكن لنا في رضوانه وجنته. وما من شيء أقر لأعيننا ولا أحب إلينا من ذلك. وإنا منكم حينئذ لعلى إحدى الحسينيين، إما أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا إن ظفرتنا بكم أو غنيمة الآخرة إن ظفرتم بنا، وإنها لأحب الخصلتين إلينا بعد الإجتهد منا، والله عز وجل قال لنا في كتابه ﴿لَكُمْ مِنْ فَتْنَةٍ فَبَلَغَتْ فِتْنَةً كَثِيرَةً بِأَذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(١).

وما منا إلا ويدعو به صباحا ومساءً أن يرزقه الشهادة، وألا يرده إلى بلده ولا إلى أرضه ولا إلى أهله وولده، وإنما همنا ما أمامنا، وأما قولك إننا في ضيق وشدة من معاشنا وحالنا، فنحن في أوسع السعة. لو كانت الدنيا كلها لنا ما أردنا منها لأنفسنا أكثر مما نحن عليه،

(١) الآية ٢٤٩ من سورة البقرة

فانظر الذى تريد فبينه لنا ، فليس بيننا وبينكم خصلة نقبلها منك ولا نجيبك إليها إلا خصلة من ثلاث ، فاختر أيها شئت ، ولا تطمع نفسك فى الباطل ، بذلك أمرنى الأمير ، وبها أمره أمير المؤمنين ، وهو عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل إلينا :

إما أجيتم إلى الإسلام الذى هو الدين الذى لا يقبل الله غيره . وهو دين أنبيائه ورسله وملائكته . أمرنا الله أن نقاتل من خالفه ورغب عنه حتى يدخل فيه ، فإن فعل كان له ما لنا وعليه ما علينا . وكان أخانا فى دين الله ، فإن قبلت ذلك أنت وأصحابك فقد سعدتم فى الدنيا والآخرة . ورجعنا عن قتالكم ، ولم نستحل أذاكم ولا التعرض لكم ، فإن أبيتم إلا الجزية فأدوا إلينا الجزية عن يد وأنتم صاغرون . نعاملكم على شئى نرضى به نحن وأنتم فى كل عام أبدا ما بقينا وبقيتم . ونقاتل عنكم من ناوأكم وعرض لكم فى شىء من أرضكم ودمائكم وأموالكم . ونقوم بذلك عنكم إذا كنتم فى ذمتنا وكان لكم به عهد علينا . وإن أبيتم فليس بيننا وبينكم إلا المحاكمة بالسيف حتى نموت عن آخرنا أو نصيب ما نريد منكم . هذا ديننا الذى ندين الله به ، ولا يجوز لنا فيما بيننا وبينه غيره . فانظروا لأنفسكم .

فقال المقوقس له : هذا ما لا يكون أبدا ، ما تريدون إلا أن تتخذونا نكون لكم عبيدا ما كانت الدنيا . فقال عبادة بن الصامت : هو ذلك فاختر ما شئت . فقال له المقوقس : أفلا تجيبونا إلى خصلة غير هذه الثلاث خصال؟ فرفع عبادة يديه فقال : لا ورب هذه السماء ورب هذه الأرض ورب كل شىء . ما لكم عندنا خصلة غيرها . فاختاروا لأنفسكم . فالتفت المقوقس عند ذلك لأصحابه فقال : قد فرغ القوم ، فماذا ترون؟

فقالوا : أويرضى أحد بهذا الذل . أما ما أرادوا من دخولنا فى دينهم فهذا ما لا يكون أبدا . أن نترك دين المسيح بن مريم وندخل فى دين غيره لا نعرفه . وأما ما أرادوا أن يسبونا ويجعلونا عبيدا فالموت أيسر من ذلك . لو رضوا منا أن نضعف لهم ما أعطيناهم مرارا كان أهون علينا .

فقال المقوقس لعبادة : قد أبى القوم ، فما ترى؟ فراجع صاحبك على أن نعطيكم فى مرتكم هذه ما تمنيتم وتنصرفون . فقام عبادة وأصحابه . فقال المقوقس عند ذلك لن حوله : أطيعونى وأجيبوا القوم إلى خصلة من هذه الثلاث ، فوالله ما لكم بهم طاقة . ولئن لم تجيبوا إليها طائعين لتجيبنهم إلى ما هو أعظم كارهين . فقالوا : وأى خصلة نجيبهم إليها؟

إذا أخبركم . أما دخولكم فى غير دينكم فلا آمركم به . وأما قتالهم فأنا أعلم أنكم لن تقووا عليهم ولن تصبروا صبرهم . ولا بد من الثالثة . قالوا : أفنكون لهم عبيدا قال : نعم

تكونون عبيدا مسلطين فى بلادكم، آمنين على أنفسكم وأموالكم وذراريكم خير لكم من أن تموتوا عن آخركم وتكونوا عبيدا تباعوا وتمزقوا فى البلاد مستعبدين أبدا، أنتم وأهلوكم وذراريكم.

قالوا: فالموت أهون علينا، وأمروا فقطع الجسر من القسطنطينية وبالجزيرة وبالقصر من جمع القبط والروم جمع كثيره، فألح عليهم المسلمون عند ذلك بالقتال على من فى القصر حتى ظفروا بهم وأمكن الله منهم، فقتل منهم خلق كثير، وأسر من أسر.

من كتاب (فتوح مصر والمغرب) لابن عبد الحكيم.

□□□

علمه الذى قتلته من أجله !

فى سنة ٢٧ من الهجرة أمر أمير المؤمنين عثمان (ثالث الخلفاء ٢٣-٣٥هـ/٦٤٣-٦٥٥م)، عبد الله بن سعد بن أبى سرح العامرى^(١) بغزو إفريقية. فخرج عبد الله من مصر فى عشرين ألف إلى إفريقية وصاحبها بطريق يقال له جرجير وكان سلطانه من طرابلس إلى طنجة، فبعث عبد الله السرايا فى آفاق إفريقية فغنموا فى كل وجه، والتقى عبد الله مع البطريق ضحى النهار فى موضع يعرف بسببلة، وكان جرجير فى مائة وعشرين ألفا فضاقت المسلمون فى أمرهم واختلفوا على لين سعد فى رأى، فدخل فسطاطه (خيمته) مفكرا فى الأمر.

فلما رأى جرجير خيل العرب اشتد رعبه وأهمته نفسه فأخرج ديدبانه (حارسه)، وصد فيه يشرف على العساكر ويرى القتال، وأمر ابنته فصعدت الديدبان وسفرت عن وجهها، وكان عدة خدمها اللائى سعدن الديدبان أربعين جارية فى الحلى والحلل من أجمل ما يكون، ثم قدم كرايسه كردوسا كردوسا وهو تحت الديدبان ثم قال لهم «أتعرفون هذه؟» فقالوا «نعم هذه سيدتنا، ابنة الملك وهؤلاء خدمها» فقال لهم «وحق المسيح ودين النصرانية لئن قتل رجل منكم أمير العرب عبد الله بن سعد لأزوجه ابنتى هذه، وأعطيه ما معها من الجوارى والنعمة، وأنزله المنزلة التى لا يطمع فيها أحد عندى» وما زال ذلك من قوله حتى مر على المسامع خيله ورجله فحرض بذلك تحريضا شديدا.

وإن عبد الله بن سعد لما انتهى إليه ما فعل جرجير وما كان من قوله نادى فى عسكره فاجتمعوا، فأخبرهم بالذى كان من جرجير ثم قال «وحق النبى محمد - صلى الله عليه وسلم - لا قتل أحد منكم جرجير إلا نفلته ابنته ومن معها» ثم زحف المسلمون فالتقى الجمعان. واستعر القتال واشتعلت نار الحرب، والمسلمون قليل والمشركين فى عشرين ومائة ألف. وأشكل الأمر على ابن سعد ودخل فسطاطه مفكرا فى الأمر.

(١) هو عبد الله بن سعد بن أبى السرح بن الحارث العامرى القرشى، أخو عثمان بن عفان فى الرضاة، أسلم قبل الفتح وهاجر ثم ارتد، وهو أحد الأربعة الذين أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بقتلهم يوم فتح مكة فتشجع له عثمان عند النبى فقبل النبى شفاعته وعفا عنه فأسلم وحسن إسلامه. أصبح من قادة جيوش الفتح الإسلامى فى عهد عثمان، تولى إمارة مصر عام ٢٧ هـ وخلالها قام بفتوحات فى النوبة والسودان، تولى بناء وقيادة الإسطول الإسلامى فى معركة ذات الصوارى الشهيرة التى انتصر فيها المسلمون على البيزنطيين وأغرقوا لهم أكثر من تسعمائة سفينة، غزا إفريقية عدة مرات فى عهد عثمان حتى بلغ تونس وفتح مدينة قرطاجنة التونسية. توفى عام ٣٧ هـ.

قال عبد الله بن الزبير: فرأيت عورة من جرجير والناس على مصافهم، رأيت على برذون أشهب خلف أصحابه منقطعا عنهم، معه جاريتان له تظلاله من الشمس بريش الطواويس، فأتيت فسطاط عبد الله بن سعد فطلبت الإذن عليه، فقال له حاجبه «دعه فإنه يفكر في شأنكم ولو اتجه له رأى لدعا بالناس» فقلت «إني محتاج إلى مذاكرته» فقال له «أمر في أن أحبس الناس عنه، حتى يدعوني» قال: فدرت حتى كنت من وراء الفسطاط فرأى وجهي فأوماً إلى أن تعال، فدخلت عليه وهو مستلق على فراشه فقال «ما جاء بك يا ابن الزبير؟» فقلت «رأيت عورة من عدونا. فرجوت أن تكون فرصة هيأها الله لنا. وخشيت الفوت» فقام من فوره وخرج حتى رأى ما رأيت فقال «أيها الناس انتدبوا مع ابن الزبير إلى عدوكم» فتسرع إلى جماعة اخترت منها ثلاثين فارساً فقلت «إني حامل فاصرفوا عن ظهري من أرادني فأني سأكفيكم ما أمامي إن شاء الله».

قال عبد الله: فحملت في الوجه الذي هو فيه، وذبح عنى الناس الذين انتدبوا معي واتبعوني حتى خرقت صفوفهم إلى أرض خالية فضاء بيني وبينهم، فوالله ما حسب إلا أني رسول إليه، حتى رأى ما بي من أثر السلاح فقدر أني هارب إليه فلما أدركته، طعنته، فسقط: فرميت نفسي عليه وألقت جارياته عليه أنفسهما فقطعت يد إحداهما، وأجهزت عليه، ورفعت رأسه على رمحي، وحال أصحابه وحمل المسلمون في ناحيتي وكبروا، فانهزم الروم وقتلهم المسلمون كيف شاءوا، وثار الكمائن من كل جهة ومكان، وسبقت خيول المسلمين ورجالهم إلى حصن سبيطة فمنعهم من دخوله. وركبهم المسلمون يميناً وشمالاً في السهل والوعر، فقتلوا أنجادهم وفرسانهم وأكثروا فيهم الأسرى، حتى لقد كنت أرى في موضع واحد أكثر من ألف أسير.

وذكر أشياخ من أهل إفريقية، أن ابنة جرجير لما قتل أبوها تنازع الناس في قتله وهي ناظرة إليهم فقالت «قد رأيت الذي أدرك أبي، فقتله». فقال لها الأمير ابن أبي سرح «هل تعرفينه؟» فقالت «إذا رأيت، عرفته» قال فمر الناس بين يديها حتى مر عبد الله بن الزبير فقالت «هذا المسيح قتل أبي» فقال له ابن أبي سرح «لم كتمتنا قتلك إياه؟» فقال عبد الله «علمه الذي قتلته من أجله» فقال الأمير «إذا والله أنفلك ابنته» فنقله ابن أبي سرح ابنة الملك جرجير، فيقال إنه اتخذها أم ولد، ولما انهزمت جيوش جرجير سار عبد الله بن أبي سرح حتى نزل باب مدينته العظمى قرطاجنة، فحصرها من كان معه من المسلمين حصاراً شديداً حتى فتحت، فأصاب فيها من السبى والأموال ما لم يحيط به الوصف.

من كتاب (البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب) لابن عذاري.

تداول الناصر في البنيان

وكان الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله^(١) كلفا بعمارة الأرض وإقامة معالمها، وتخليد الآثار الدالة على قوة الملك وعز السلطان؛ فأقضى به الإغراق في ذلك إلى أن ابنتى مدينة الزهراء. البناء الذى شاع ذكره: استفرغ وسعه في تنميقها، وإتقان قصورها، وزخرفة مداخلها. فانهمك في ذلك حتى عطل شهود الجمعة بالمسجد الجامع الذى اتخذته ثلاث جمع متوالية؛ فأراد القاضى منذر^(٢) أن يعرض منه بما تناوله من الموعدة بفصل الخطاب والحكمة والتذكرة بالإنابة والرجعة؛ فأدخل في خطبته فصلا مبتدئا بقوله تعالى:

﴿ أَتَمْنُونَ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةٌ تَمَعُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَسْخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَحَنَنٍ وَعَيْونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ ﴾^(٣). ولا تقولوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين. فمتاع الدنيا قليل. والآخرة خير لمن اتقى! وهى دار القرار. ومكان الجزاء. ووصل ذلك بكلام جزل، وقول فصل، ومضى فى ذم تشييد البنيان، والاستغراق فى زخرفته، والإسراف فى الإنفاق عليه؛ فجرى طلقا؛ وانتزع فيه قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُيُوتَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُيُوتَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرْفٍ هَاكِ فَانْهَارَ بِهٖ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ ﴾^(٤).

ولقد اتخذ الخليفة الناصر لسقف القبيبة المصغرة التى كانت ماثلة على الصرح المرمود المشهور بقصر الزهراء. قراميد مغشاة ذهباً وفضة، أنفق عليها مالا جسيما، وقرمذ سقفها

(١) هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم الرضى. الناصر لدين الله أو عبد الرحمن الناصر، ثامن الأمراء الأمويين فى الأندلس وأول من اتخذ لقب الخلافة فى الأندلس (٣٠٠-٣٥٠هـ/٩١٣-٩٦١م)، يعتبر عصره من أزهى العصور الإسلامية فى الأندلس وذروة الحكم الأموى بها، كان محبا للعلم والجهاد والتشييد والبناء، قضى على الفتن والثورات ووجد الأندلس تحت حكمه القوى، انتصر عدة انتصارات مؤثرة على النصارى فى الشمال انتزع على أثرها أجزاء كبيرة من مملكة ليون، أهم إنجازاته العمرانية بناء مدينة الزهراء الملكية عام ٣٢٥هـ على مسافة ٣٠ كم شمال غربى قرطبة التى تعد بحق معجزة معمارية، أصبحت العاصمة قرطبة فى عهده أعظم مدن العالم حيث كانت مركزا للعلوم والآداب فكان بها أكثر من سبعين مكتبة تحتوى الواحدة منها على أكثر من أربعمئة ألف كتاب، توفى عام ٣٥٠هـ.

(٢) هو منذر بن سعيد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن قاسم بن نجيح النفري، قاضى الأندلس وفقهها فى عهد عبد الرحمن الناصر، قضى بمذهب مالك بن أنس وأصحابه، تقلد منصب القضاء بقرطبة عام ٣٣٩هـ، وليت قاضيا إلى أن توفى عام ٣٥٥هـ.

(٣) (الآيات ١٢٨ : ١٣٥ سورة الشعراء)

(٤) (الآية ١٠٩ سورة التوبة)

بها، تشتت الأبصار بأشعة أنوارها. وجلس فيها يوما، إثر تمامها، لأهل مملكته. فقال لقرايبته منهم من الوزراء وأهل الخدمة، مقتخرا بما صنعه من ذلك: هل رأيتم أو سمعتم ملكا كان قبلي فعل مثل فعلى هذا أو قدر عليه؟ فقالوا: لا! يا أمير المؤمنين! وإنك لو احدثت في شأنك كله، وما سبقك إلى مبتدعاتك هذه ملك رأيناه، ولا انتهى إلينا خبره! فأبهجه قولهم وسره.

وبينما هو كذلك، إذ دخل عليه القاضى منذر بن سعيد، واجما ناكس الرأس؛ فلما أخذ مجلسه، قال له كالذى قال لوزرائه من ذكر السقف المذهب، واقتداره على إبداعه؛ فأقبلت دموع القاضى تنحدر على لحيته، وقال له: والله! يا أمير المؤمنين، ما ظننت أن الشيطان لعنه الله! يبليغ منك هذا المبلغ، ولا أن تمكنه من قبلك هذا التمكين، مع ما آتاك الله من فضله ونعمته، وفضلك به على العالمين، حتى ينزلك منازل الكافرين! قال: فانفعل عبد الرحمن لقوله، وقال له: انظر ما تقول! وكيف أنزلتني منزلتهم؟ فقال له: نعم! أليس الله تعالى يقول: ﴿وَلَوْ لَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُؤْيِيَهُمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ (٣٣). فوجم الخليفة، وأطرق مليا، ودموعه تتساقط خشوعا لله سبحانه، ثم أقبل على منذر وقال له: جزاك الله. يا قاضى! عنا وعن نفسك خيرا! وعن الدين والمسلمين أجل جزائه! وكثر فى الناس أمثالك! فالذى قلت هو الحق! وقام عن مجلسه ذلك، وأمر بنقض سقف القبة، وأعاد قرمودها ترابا على صفة غيرها.

من كتاب (تاريخ قضاة الأندلس) للنباهى

□□□

(١) (الآية ٣٣ سورة الزخرف)

من غرائب حكم الحاكم!

ولى الحاكم^(١) مصر فكان شر الخليفة. لم يل مصر بعد فرعون شر منه، رام أن يدعى الإلهية كما إدعاها فرعون، فأمر الرعية إذ ذكره الخطيب على المنبر أن يقوموا على أقدامهم صفوفًا إعظامًا لذكره، واحترامًا لاسمه، فكان يفعل ذلك في سائر ممالكه حتى في الحرمين الشريفين، وكان أهل مصر على الخصوص إذا قاموا خروا سجدا. حتى أنه يسجد بسجودهم في الأسواق الرعاع وغيرهم. وكان جبارا عنيدا. وشيطانا مريدا. كثير التلون في أقواله وأفعاله، هدم كنائس مصر ثم أعادها وخرّب قمامة (كنيسة القيامة بالقدس) ثم أعادها، ولم يعهد في ملة الإسلام بناء كنيسة في بلد الإسلام قبله ولا بعده.

ومن قبائح الحاكم أنه ابتنى المدارس وجعل فيها الفقهاء والمشايع. ثم قتلهم وخرّبها، وألزم الناس بإغلاق الأسواق نهارا وفتحها ليلاً، فامتلأوا ذلك دهرًا طويلا، حتى اجتاز مرة بشيخ يعمل التجارة في أثناء النهار، فوقف عليه وقال: ألم أنهكم عن هذا؟ فقال: يا سيدى أما كان الناس يسهرون لما كانوا يتعيشون بالنهار، فهذا من جملة السهر، فتبسم وتركه، وأعاد الناس على أمرهم الأول.

وكان يعمل الحسبة (مراقبة السوق) بنفسه يدور في الأسواق على حمار له، وكان لا يركب إلا حمارا، فمن وجده قد غش، أمر عبدا أسودا معه يقال له مسعود أن يفعل به الفاحشة العظمى، وكان منع النساء من الخروج من منازلهن، ومنع من طبخ اللوخيا، وله رعونات كثيرة لا تنضب، فأبغضه الخلق، وكتبوا له الأوراق بالشتم له ولاسلافه في صورة قصص، حتى عملوا صورة امرأة من ورق يخفها وإزارها، وفي يدها قصة فيها من الشتم شىء كثير. فلما رآها ظنها امرأة، فذهب من ناحيتها وأخذ القصة من يدها، فلما رأى ما فيها غضب وأمر بقتلها. فلما تحققها من ورق إزداد غضبا إلى غضبه وأمر العبيد من السود أن يحرقوا مصر وينهبوا ما فيها من الأموال والحريم، وقاتلهم أهل مصر قتالا عظيما ثلاثة أيام، والنار تعمل في الدور والحريم، واجتمع الناس في الجوامع ورفعوا المصاحف،

(١) هو الحاكم بأمر الله المنصور بن العزيز بالله، هو الخليفة الفاطمي السادس (٣٨٦-٤١١هـ/٩٩٦-١٠٢١م)، خلف والده وهو في الحادية عشرة من عمره. يعده بعض المؤرخين آخر الخلفاء الفاطميين الأقوياء، إتسمت فترة حكمه بالتوتر، اشتد في عهده النزاع مع الدولة العباسية والقرامطة، إشتهر الحاكم بكثرة سفكه للدماء فضلا عن أوامره الغريبة التي ظل يملئها دائما على العامة، آمنت بعض الطوائف بربوبيته، اختفى عام ٤١١هـ / ١٠٢١م وأغلب الظن أن أخته قتلتها ودفنتها خفية في بيتها.

وجأروا إلى الله واستغاثوا به ، وما انجلى الحال حتى احترق من مصر ثلثها ، ونهب نحو نصفها وسبى حريم كثير وفعل بهن الفاحشة ، واشترى الرجال من سبى لهم من النساء والحريم من أيدي العبيد. ثم كان من أمر الحاكم أن تعدى شره إلى أخته فيتهمها بالفاحشة ، ويسمعها أغلظ الكلام فعملت على قتله ، فركب ليلة إلى جبل المقطم ينظر فى النجوم ، فأتاه عبدان قتلاه وحملاه إلى أخته ليلا فدفنته فى دارها وذلك سنة إحدى عشر وأربعمائة .

من كتاب (حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة) للسيوطى .

وفى جمادى الآخرة سنة خمس وأربعمائة ورد الخبر بأن الحاكم حظر على النساء الخروج من منازلهن والإطلاع على سطوحهن ودخول الحمامات ، ومنع الأساكفة من عمل الخفاف لهن ، وكان الحاكم قد لهج بالركوب بالليل يطوف الأسواق ورتب فى كل درب أصحاب أختيار يطالعونه بما يعرفونه ، ورتبوا لهم عجائز يدخلن الدور ويرفعن إليهم أخبار النساء ، وأن فلان يحب فلانة وفلانة تحب فلانا ، وأن تلك تجتمع مع صديقتها وهذا مع صاحبتة ، فكان أصحاب الأخبار يرفعون إليه ذلك فينقذ من يقبض على المرأة التى سمع فيها مثل ذلك ، فإذا اجتمع عنده جماعة منهن أمر بتغريقهن ، فافتصح الناس وصخبوا من ذلك ، فأمر برفعه والنداء بأنه متى خرجت المرأة من منزلها أباحت دمها ، ورأى بعد النداء عجائز ظاهرات فغرقهن ، فكانت المرأة إذا ماتت كتب وليها رقة إلى قاضى القضاء يلتمس غاسلة لتغسيلها ، فوقع إلى صاحب المعونة إذا صح عندك وفاة المرأة المذكورة ، أمرت رجلين من ثقاتك أن يحملوا الغاسلة تغسلها ثم تعاد إلى منزلها ، ثم هم بتغيير هذه السنة .

اتفق أن مر قاضى القضاة مالك بن سعيد الفارقي ، ببعض المحال فنادته امرأة من روزنة لها وأقسمت عليه بالحاكم وآبائه أن يقف ، فبكت بكاءً شديداً وقال : لى أخ لا أملك غيره وعرفت أنه فى آخر رمق ، وأنا أقسم عليك إلا أمرت أحمل إليه لاشاهده قبل أن يقضى نحبه ، فرحمها ورق لها وأمر رجلين من أصحابه أن يحملها إلى الموضع الذى تدلها عليه ، فأغلقت باب دارها وتركت المفتاح عند جارة لها وقالت : سلميه إلى زوجى ومضت إلى باب فدقته فدخلت وقالت للرجلين : إنصرفا ، وكانت الدار لرجل يهواها وتهواه ، فلما رآها سر بها فأخبرته بالحيلة التى نمت بها ، فلما انصرف زوجها آخر النهار وجد بابها مغلقاً ، فسأل الجيران فأخبروه بالحال وبما جرى لها مع قاضى القضاة ، فدخل بيته فبات فى أقبح ليلة ثم باكر فى غد دار قاضى القضاة ، فأعلن بالإستغاثة فأحضر فقال : أنا زوج المرأة التى فعلت أمس فى بابها ما فعلته وما لها أخ وما أفارقك حتى تردها إلى ، فعظم على

قضى القضاة ما سمعه وخاف الحاكم وسطوته إن لم يصدقه ، فركب واستصحب الرجل ودخل على الحاكم وهو مرعوب فسأله عن قصته فقال: يا أمير المؤمنين لا بد بعفوك مما تم على أمس . قال: وما هو؟ فشرح له الحال فأمر بإحضار الرجل فدخل فأخبره بالحال ، فأمر قاضي القضاة أن يركب ويستصحب الرجلين الذى أنفذ بهما مع المرأة حتى يرشدها إلى الدار ليشاهد ما هو عليه ويقبض على القوم ، وفعل فوجد المرأة والرجل نائمين فى إزار واحد على سكر ، فحملا إلى الحاكم ، فسأل المرأة عن الحال ، فأحالت على الشيطان وما حسنه لها وسأل الرجل فقال: هذه امرأة هجمت على وزعمت أنها خلوا من زوج وأنى لو لم أتزوجها سعت بى إليك لتقتلنى ، فاستحللتها بموافقة جرت بينى وبينها ، فتقدم الحاكم أن تلف المرأة فى بارية وتتحرق ، وأن يضرب الرجل ألف سوط. وعاد الحاكم يتشدد على النساء ويمنعهن من الظهور إلى أن قتل.

من كتاب (المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم) لابن الجوزى.

□□□